الفصل الثالث

لمحة عن ابن زريق البغدادى وشعره "لاتعذليه"

أ. حياة ابن زريق البغدادى

ابن زريق البغدادي (المتوفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) هو أبو الحسن علي أبو عبد الله بن زريق الكاتب البغدادي هو شاعر عباسي. كان له ابنة عم أحبها حبًا عميقًا صادقًا، ولكن أصابته الفاقة وضيق العيش، فأراد أن يغادر بغداد إلى الأندلس طلبًا للغنى، وذلك بمدح أمرائها وعظمائها، ولكن صاحبته تشبثتْ به، ودعته إلى البقاء حبًا له، وخوفًا عليه من الأخطار، فلم ينصت لها، ونفَّذ ما عَزم عليه، وقصد الأمير أبا الخير عبد الرحمن الأندلسي في الأندلس، ومدحه بقصيدةٍ بليغة جدًا[١]. فأعطاه عطاءً قليلاً، فقال ابن زريق – والحزن يحرقه : "إنا لله وإنا إليه راجعون، سلكت القفار والبحار إلى هذا الرجل، فأعطاني هذا العطاء القليل؟ ."!

ثم تذكَّر ما اقترفه في حق بنت عمه من تركها، وما تحمَّله من مشاقٍ ومتاعب، مع لزوم الفقر،وضيقِذا تاليد، فاعتلَّ غمًّا ومات. ذكر ابن السمعاني لهذه القصيدة قصة عجيبة فروى: أن رجلا من أهل بغداد قصد أبا عبد الرحمن الأندلسي وتقرب إليه بنسبه فأراد أبو عبد الرحمن أن يبلوه ويختبره فأعطاه شيئا نزراً فقال البغدادي إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت البراري والقفار والمهامه والبحار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء النزر فانكسرت إليه نفسه فاعتل ومات وشغل عنه الأندلسي إياما ثم سأل عنه فخرجوا يطلبونه فانتهوا إلى الخان الذي هو فيه وسألوا الخانية عنه فقالت إنه كان في هذا البيت ومذ أمس لم أبصره فصعدوا فدفعوا الباب فإذا هو ميت وعند رأسه رقعة فيها مكتوب:

لا تعذليه فإن العذل يولعه ***** قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

[١] إبراهيم الحمدو العمر, شاعر وقصيدة (القاهر : مكتبة الأنجلو المصرية. ٢٠١٤ م), ص ٥٦

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وذكر أبياتا من القصيدة غير تامة قال فلما وقف أبو عبد الرحمن على هذه الأبيات بكى حتى خضب لحيته وقال وددت أن هذا الرجل حي وأشاطره نصف ملكي وكان في رقعة الرجل منزلي ببغداد في الموضع الفلاني المعروف بكذا والقوم يعرفون بكذا فحمل إليهم خمسة آلاف دينار وعرفهم موت الرجل .

وقال بعض مَن كتب عنه إنَّ عبد الرحمن الأندلسي أراد أن يختبره بهذا العطاء القليل ليعرف هل هو من المتعففين أم الطامعين الجشعين، فلما تبيَّنت له الأولى سأل عنه ليجزل له العطاء، فتفقدوه في الخان الذي نزل به، فوجدوه ميتًا، وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه العينية. فبكاه عبد الرحمن الأندلسي بكاءً حاراً .

وقد اطلق على هذه القصيدة أسماء ثلاثة: عينية ابن زريق, وفراقية ابن زريق – ويتيمة ابن زريق .

ولكل تسمية سبب:

– فهي العينية لأن قافيتها هي العين المضمومة, وكان من عادة العرب إطلاق اسم القافية علي القصيدة :

فيقولون «سينية البحتري», و«بائية أبي تمام», و«ميمية» البوصيري.

– وهي القصيدة الفراقية: لأن موضوعها "الفراق"

– وهي القصيدة اليتيمة : (لان مؤرخي الأدب لم يذكروا له غيره هذه القصيدة .

قصيدة عينية ابن زريق من عيون الشعر ... قال عنها ابن حزم الأندلسي : "*من تختم بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو وتفقه للشافعي وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف* ."قصيدة لا تعذليه فإن العذل يولعه

خاطب فيها زوجته، ويؤكد لها حبه حتى الرمق الأخير من حياته، ويترك خلاصة لتجربته مع الغربة والرحيل، من أجل الرزق وفي سبيل زوجته التي نصحته بعدم الرحيل فلم يستمع إليها. وفي ختام قصيدته يظهر نادم متصدع القلب من لوعةٍ وأسى، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين.

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

والمتأمل في قصيدة ابن زريق البغدادي لا بد له أن يكتشف رقة التعبير فيها، وصدق العاطفة، وحرارة التجربة ؛ فهي تنم عن أصالة شاعر مطبوع له لغته الشعرية المتفردة، وخياله الشعري الوثّاب، وصياغته البليغة المرهفة، ونفسه الشعري الممتد ؛ والغريب ألا يكون لابن زريق غير هذه القصيدة، الذي لم تحفظ له كتب التراث الشعري غير قصيدته هاته.

ب. شعر ابن زريق البغدادى "لا تعذليه"

١. أبيات شعر ابن زريق البغدادى

لا تَعــــذَلِيه فَإِنَّ العَـذلَ يُولِعُـهُ
قَد قَلتِ حَقاً وَلَكِـن لَيسَ يَسمَعُهُ

جاوَزتِ فِي لَومــــهُ حَداً أَضَرَّبِهِ
مِن حَيثَ قَدرتِ أَنَّ اللَـومَ يَنفَـعُــهُ

فَاستَعمِلِي الرِفق فِي تَأنِيبِهِ بَدَلاً
مِن عَذلِهِ فَهُوَ مُضنى القَلبِ مُوجعُهُ

قَد كانَ مُضطَلَعاً بِالخَطبِ يَحمِلُهُ
فَضُيِّقَت بِخُطُوبِ الدّهرِ أَضلُعُــهُ

يَكفِيهِ مِن لَوعَةِ التشتيت أَنَّ لَهُ
مِنَ النَّــوى كُـلَّ يَـومٍ ما يُروعُـــــهُ

ما آبَ مِن سَفَـرٍ إِلّا وَأَزعَـجَــهُ
رَأيٌ إِلى سَفَــرٍ بِالعَـزمِ يَزمَعُـــــهُ

كَأَنَّما هُـوَ فِي حِـــلٍّ وَمُرتَحَـلٍ
مُوَكَّـلٍ بِفَضـــــــاءِ الله يَذرَعُـــهُ

إن الزَمانَ أَراهُ فِي الرَحِيلِ غِنىً
وَلَو إِلى السَدِّ أَضحى وَهُوَ يُزمــعُهُ

تأبى المطـامعُ إلا أن تُجَشّـمـه
digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

للـرزق كداً وكم ممن يودّعـــــــــه

وَما مُجاهَدَةُ الإِنســانِ تَوصِلُهُ

رزقَاً وَلادَعَـةُ الإِنسـانِ تَقطَعُـــــــهُ

قَد وزّع اللهُ بَينَ الخَلقِ رزقَهُمُو

لَم يَخلُـق اللهُ من خلق يُضَيِّعُـــــــهُ

لَكِنَّهُم كُلِّفُوا حِرصاً فلَستَ تَرى

مُستَرزِقاً وَسِوى الغاياتِ تُقنُعُــهُ

وَالحِرصُ في الرّزاق وَالأَرزاقِ قَد قُسِمَت

بَغِيُ أَلّا إِنَّ بَغيَ المرءِ يَصرَعُـــــــهُ

وَالمهرُ يُعطِي الفَتى مِن حَيثُ يَمنَعُـــــه

إِرثاً وَيَمنَعُهُ مِن حَيثِ يُطمِعُـــــهُ

اِستَودِعُ اللهَ فِي بَغـدادَ لِي قَمَراً

بِالكَرخِ مِن فَلَـكِ الأَزرارَ مَطلَعُــهُ

وَدَّعتُـهُ وَبـوُدّي لَو يُوَدِّعُـني

صَفـوُ الحَيـاةِ وَأَنّـي لا أَودعُـــــهُ

وَكَم تَشبَّثَ بِي يَومَ الرَحيلِ ضُحَىً

وَأَدمُعِـي مُستَهِـلّاتٍ وَأَدمُعُــه

لا أَكُذب اللهَ ثوبُ الصَبرِ مُنخَرِقٌ

عَنّـي بِفُـرقَتِـهِ لَكِن أَرَقِّعُـــــــهُ

إِنّي أَوَسِّـــــعُ عُذري فِي جَنـايَتِهِ

بِالبيـنِ عِنـهُ وَجُرمي لا يُوَسِّعُـــــهُ

رُزِقتُ مُلكاً فَلَم أَحسِــن سِياسَتَهُ

وَكُلُّ مَن لا يُسُوسُ الملكَ يخلَعُـهُ

وَمَن غَدا لابِساً ثَوبَ النَعِيم بِلا

شُكـرٍ عَلَيــهِ فَـإِنَّ اللهَ يَنـزَعُـــهُ

اِعتَضتُ مِن وَجهِ خِلّي بَعدَ فُرقَتِهِ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

كَأساً أَجَـرَّعُ مِنـها ما أَجَرَّعُــه

كَم قائِلٍ لِي ذُقتَ البَينَ؟ قُلتُ لَهُ

الذَنبُ وَاللهِ ذَنبي لَستُ أَدفَعُـــهُ

أَلا أَقمتَ فَكانَ الرُشدُ أَجمَـــعُهُ

لَو أَنَّني يَومَ بانَ الرُشدُ اتبَعُـــهُ

إِنّي لَأَقطَعُ أَيّامِي وَأدفِنُـــــها

بِحَسرَةٍ مِنهُ فِي قَلبِي تُقَطِّعُـــهُ

بِمَـــن إِذا هَجَعَ النُوّامُ بِتُّ لَهُ

بِلَوعَةٍ مِنهُ لَيلى لَستُ أَهجَعُـــهُ

لا يَطمِئِنُّ لِجَنبي مَضــجَعُ وَكَذا

لا يَطمَئِنُّ لَهُ مُذ بِنتُ مَضجَعُــهُ

ما كُنتُ أَحسَبُ أَنَّ الدهرَ يَفجَعُنِي

بِـــهِ وَلا أَنّ بِي الأَيّامَ تَفجعُــهُ

حَتّى جَرى البَينُ فِيما بَينَنا بِيَدٍ

عَسراءَ تَمنَعُنِي حَظّي وَتَمنَعُـــــهُ

قد كنت من ريب دهري جازعا فرقاً

فلم أوقَّ الّذي قد كنت أجزعُــهُ

بالله يا منزل العيش الّذي درست

آثاره وعفت مذ بنت أربعـــــهُ

هل الزمان معيد فيك لذّتنا

أم الليالي الّتي أمضته ترجعـــــه

فِي ذِمَّةِ اللهِ مِن أَصبَحَت مَنزِلَهُ

وَجادَ غَيثٌ عَلى مَغناكَ يُمرِعُـــهُ

مَن عِندَهُ لِي عَهدُ لا يُضيّعُـــهُ

كَما لَهُ عَهدُ صِدقٍ لا أُضَيِّعُــهُ

وَمَن يُصَـــدِّعُ قَلبي ذِكرَهُ وَإِذا

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

جَرى عَلى قَلبِهِ ذِكري يُصَدِّعُــهُ

لَأَصبِرَنَّ لِدهـــــرٍ لا يُمَتِّعُنِي

بِـــــهِ وَلا بِيَ فِي حالٍ يُمَتِّعُهُ

عِلماً بِأَنَّ اِصطِباري مُعقِبُ فَرَجاً

فَأَضيَقُ الأَمرِ إِن فَكَّرتَ أَوسَعُــهُ

عَسى اللَيالي الَّتي أَضنَت بِفُرقَتَنــا

جِسمي سَتَجمَعُنِي يَوماً وَتَجمَعُــهُ

وَإِن تُغِل أَحَداً مِنّا مَنِيَّتَهُ

فَمـــــا الَّذي بِقَضاءِ اللَهِ يَصنَعُهُ[٢]

ب. مضمون شعر ابن زريق البغدادى

وكان الشاعر ابن زريق البغدادي قد أكد لزوجته في هذه القصيدة حبه الشديد لها حتى الرمق الأخير من حياته وكان أيضا قد ترك خلاصة لحياته مع الغربة التي كانت في سبيل كسب الرزق وفي سبيل زوجته التي كانت قد نصحته بعدم الرحيل ولكنه لم يستمع لها ويختم في نهاية قصيدته موضحا ندمه على ما فعل حيث أنه وفي بلاد الغربة لا أنيس ولا قريب ولا رفيق.

وقد كانت قصيدة الشاعر ابن زريق البغدادي قد تميزت في الاحساس الصادق ورقة المشاعر التي فيها والتي كانت تنم عن أصالة شاعر مطبوع له لغته الشعرية المتفردة وخياله الشعري الواسع وصياغته المرهفة وقد كان الغريب عدم توفر قصيدة أخرى غير هذه القصيدة لهذا الشاعر التي لفت الأنظار الى قصيدة التي وصفت بالرائعة .

[٢] شربيني شريدة، جواهر الشعر ، (دار الحديث: القاهر) ص. ٧٤٤- ٧٤٦

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

د. البحر في شعر ابن زريق البغدادى

البحور العروضية التي أستخداما ابن زريق على التوالي هي : الطويل والبسيط والكامل والوافر والجفيف, وهي أكثر استجداما في شعره لاتعذليه وتدلّ هذه الأوزان على تنوع حالات ابن زريق النفسية وتناغم هذه الأزوان مع موضوع الشاعر كما نرى البحر الطويل أول هذه البحور.

بناء على إستخدام علم العروض هذا الشعر ابن زريق تعدد في البحر البسيط. وأجزاءه :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن # مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

كشعر ابن زريق البغدادى :

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id